

مرد له، وحكمة الله لا تأويل لها، والمؤمن حقاً هو الذي يذعن للقضاء ويصبر على المحنة، ولا يسأل الله عما يفعل؛ فهذا كفر به وشك فيه، ولا يسأل الله رد القضاء؛ فقضاء الله لا يُرد، وإنما يسأله اللطف فيه، فالله لطيف بعباده، وقد قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وخالد يدعوه ويدعوه. لا يفتر لسانه عن ترديد هذين الدعاءين اللذين تجري بهما ألسنة الشيوخ في الريف: «اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير. اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه.» وقد رأى امرأته آخر الأمر هادئة مطمئنة تبسم لضوء الشمس، لكنها ساكتة لا تنطق بحرف، ساكتة لا تأتي حركة. فلما سألتها عن حالها لم تجبه كأنها لم تسمعه، فأعاد عليها السؤال مرة ومرة، ولكنه لم يسمع لسؤاله جواباً. ولم يرَ أمامه إلا تمثالاً بشعاً على وجهه ابتسامة بشعة تزيده قبحاً وتشويهاً، وقد امتدت عيناه كأنما تنظران إلى شيء بعيد لا يرى، وهو كذلك هامد جامد كأن ليس له حظ من حياة.

هناك انسلَّ خالد من غرفته في رفق وأسرع إلى أبيه، فإذا هو جالس في مصلاه من غرفة أم خالد يسبح ويحمد ويكبر، وأمامه كأسان من القهوة وقطعة من الخبز الجاف وقليل من الملح، لم يمدد إلى شيء من ذلك يده بعد؛ لأنه لم يزل في صلاته ودعائه، فلما رأى ابنه مُقبلاً ولم يكن تعود أن يراه في مثل هذه الساعة من النهار، ولا في مثل هذا المكان من الدار، رفع صوته بما بقي من فمه من الدعاء والتسبيح: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله وتعالى بكرة وأصيلاً، ثم تحوّل إلى ابنه وهو يقول: أصبح بخير يا بني! ما وراءك؟ قال الفتى في صوت منخفض: أصبح بخير يا أبت! إنَّ ورائي إلا خير، فقد ألمَّ بنفيسة بعض المرض. قال عليّ: وما ذاك؟ قال خالد: أحسب أنَّ طائفاً من الشيطان قد مَسَّها، ثُمَّ قصَّ على أبيه الخبر في جُمْل قصار، والشيخ يُصغي إليه في شيء من الوجوم. فلما فرغ الفتى من حديثه لم يزد الشيخ على أن قال: ألهمك الله الصبر يا بني وغفر لي ورحم أمك! فقد أنبأتني يوم زواجك بأنني لا أزيد على أن أغرس في دارنا شجرة البؤس.

ثُمَّ أراد الشيخ أن يكون شُجاعاً فَهَمَّ أن يمد يده إلى قطعة الخبز ولكنها لم تمتد. فَهَمَّ أن يمدّها إلى كأس القهوة ولكنها لم تمتد، وإذا عيناه تغرورقان بالدمع، وإذا هو يقول في صوت متقطع في حلقة: «اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه.» وابنه يجثو بين يديه خاشعاً، فقبل رأسه صامتاً، ثم يتحول عنه، فيقدم إليه إحدى كأسَي القهوة، فيأخذها منه، ويتناول هو الكأس الأخرى، فيشربان كأنهما الصديقان. ولم يكن خالد قد شرب القهوة بمحضر أبيه قبل اليوم. وقضت الدار نهراً غريباً؛ رجلان يختلفان إلى غرفة نفيسة، كلاهما يتلو القرآن ويجأر بالدعاء، وعمّات خالد ونساء أبيه قد ملأن